تطور الوعي الإسلامي رهن بسعة نفوذ اللغة العربية

للاستاذ زكريا البرديسي

رئيس قسم الشريعة والدراسات الاسلامية (جامعة الكويت)

1 ـ اختار الله ـ سبحانه ـ العرب ليكونوا حملة الاسلام الى جميع شعوب الدنيا ، واصطفى من بينهم محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فبعثه اليهم رسولا من انفسهم ، و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وانزل الله تعالى القرءان بلسان عربي مبين ، وتولى الرسول بيانه بالسنة النبوية العربية ، « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

وتلقى عنه صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ هذا وذاك ، واضافوا اليهما اجتهاداتهم وتطبيقاتهم ، وحملوا ذلك الى جميع الامم والاجيال من بعدهم ، تراثا عربيا ، محفوظا فى الصدور ، أو مكتوبا فى السطور .

وكان من الحكمة الالهية فى انزال القرءان بلغة واحدة ، هي اللغة العربية ، مع أن رسالة الاسلام عامة لجميع الناس والاجناس ـ **ان يلتقي المسلمون** ـ مهما اختلفت لغاتهم وشعوبهم **على لغة واحدة ، هي اللغة العربية** ، التي حملت اليهم وحي السماء وهدايتها ، وفى ذلك تحقيق وحدتهم اللسانية والفكرية والاجتماعية والسياسية . فان اللغة الواحدة ـ كما يقول أحد الفلاسفة الالمان ـ تجعل من الناطقين بها كلاما متراصا خاضعا لقوانين ، اذ انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الاذهان .

ومن هنا كانت قراءة القرءان العربي ركنا من اركان الصلاة ، وهي عماد الدين ، بحيث يجب على كل مسلم حفظ آيات منه ، يؤدي بها صلاته ، وكانت تلاوة القرءان فى ذاتها طاعة وعبادة .

وبجانب هذا وضع الفقهاء اللغة العربية فى مرتبة دينية خاصة ، حيث ذهب بعضهم الى عدم صحة عقد الزواج ممن يتكلم العربية الا بألفاظ عربية معينة لا يغني عنها غيرها من اللغات ، بل زاد بعضهم وطالب من لا يعرف العربية بتعلمها ما دام قادرا حتى يكون الزواج صحيحا .

لهذا ولغيره كانت **العربية هي لغة الاسلام** ، ولسان المسلمين ، وكان تعلمها أمرا مطلوبا ، ينبغي على كل مسلم ـ مهما كان جنسه وبلده ـ المبادرة اليه بقدر طاقته ووسعه ، حتى يؤدي الشعائر الدينية اداء صحيحا كاملا ، وحتى يزداد معرفة بالاسلام ، بالرجوع الى مصادره السماوية العربية الطاهرة .

وقد أدى ذلك الى **انتشار اللغة العربية بانتشار الاسلام** ، تسير معه وفى ظله ، أينما سار ، وكانت لها الغلبة الا فى احوال خاصة ، وقفت فيها رواسب الشعوبية حائلا بين بعض المسلمين ولغة الاسلام . فانحصرت اللغة العربية ـ حينئذ ـ فى ساحة المسجد والدراسة الدينية ، تؤدى بها الصلاة وشعائرها ، ويخطب بها فى يوم الجمعة ، ويتعلمها من يعدون أنفسهم للتفقه فى الدين ، وانذار قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

وقد كانت مصر احدى البلاد التي انتشرت فيها اللغة العربية تدريجيا خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، حتى اذا ما جاء القرن الرابع كانت اغلبية شعبها قد تركت اللغة اليونانية ـ كلغة للدواوين ـ ـ واللغة القبطية ـ كلغة للحديث الى اللغة العربية ، التي اضطر رجال الكنيسة فى هذا القرن الى ان يلقوا مواعظهم فى الكنائس بها ، بعد أن أصبحت هي اللغة السائدة بين الافراد ، لا فرق بين مسلم وغيره .

2 ـ **وكلما زادت المعرفة باللغة العربية زاد الوعي الاسلامي السليم** ، والمعرفة الصحيحة لاصول الاسلام وفروعه ، وأحكامه واهدافه ، حيث تؤخذ من منابعها الاصلية ـ قرءانا كريما وسنة نبوية ـ دون أن يدخلها تحريف أو تأويل .

اما الوازع الديني فانه لا يرتبط باللغة العربية ارتباط الوعي الاسلامي بها ، لان هناك عوامل اخرى تؤثر فى وجوده ويقظته ايضا ، ومن ذلك أساليب التربية ، والتقاليد الاجتماعية ، والاسوة التي يجدها المسلمون فى ائمتهم وقادتهم من الحكام والعلماء ، ومقدار العناية بالرد على الدعوات الالحادية ، والتيارات المعادية للاسلام .

3 ـ واللغة العربية تحتل فى بلدي مصر ، وفى الكويت بلد الجامعة ، المكانة الاولى . وتنص المادة الثالثة من الدستور الكويتي على أن « لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربية » .

وينبغي للبلاد العربية ـ بصفة خاصة ـ ان تعنى باللغة العربية العناية الكاملة حتى تكون لها ـ دون غيرها ـ السيادة كاملة فى بلادها : رسميا وثقافيا وشعبيا ، بحيث تصبح وسيلة الكتابة والتخاطب ، لا يعدل عنها الا للضرورة .

ومع ان معرفة **اللغات الاجنبية** مطلوبة بمقدار الحاجة اليها ، بل انها **من الفروض الاسلامية الكفائية** الواجبة فى المجتمع الاسلامي وفى حدود المصلحة ، فانه ينبغي الا يكون تعلمها على حساب اللغة العربية .

وقد بذل الاستعمار جهودا كبيرة فى التمكين للغته ، والتضييق على اللغة العربية ، ونجح فى ذلك بنسب متفاوتة فى بعض البلاد ، ولم ينجح فى بعضها الآخر . وكان للازهر ـ جامع الاسلام وجامعته ـ الفضل الاكبر فى هذا المجال .

وفى المكانة الاسلامية للغة العربية يقول الثعالبي: « من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن **أحب العرب أحب العربية**، ومن احب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته اليها . ومن هداه الله للاسلام . . . اعتقد ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير الرسل . . . **والعربية خير اللغات** ، وان الاقبال على تفهمها من الدين ، اذ هي اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد ، ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها . . الا قوة اليقين ، فى معرفة اعجاز القرءان ، وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة ، التي هي عمدة الاديان ، لكفى بها فضلا يحسن اثره ، ويطيب فى الدارين ثمره » .

ويقول الفقيه ابن تيمية : « **ويكره التخاطب والتعاقد بغير العربية لغير حاجة** ، وقد روى عن مالك والشافعي واحمد ما يدل على كراهية اعتياد المخاطبة بغير العربية لغير حاجة » . ويروي الاصمعي انه كان مما يخل بالمروءة فى عصره التكلم فى مصر عربي باللغة الفارسية .

واللغة العربية لغة سهلة ليس فيها صعوبة غيرها من اللغات ، والصعوبة التي يلصقها بها بعض أهلها وغيرهم ، سببها عدم العناية بدراستها ومعرفتها كما عنوا بغيرها .

وقد نشرت الصحف المصرية أن استاذا بجامعة السوربون كتب فى صحيفة الموند الفرنسية ، يدعو الى تدريس اللغة العربية فى المدارس الفرنسية ، قائلا انها سهلة ، واسهل ما فيها كتابتها من اليمين الى اليسار، وهذا هو الاصل فى الكتابة .